على ذكر معهد الصحراء وبيت الحكمة

رهين المحبسين

لاسماعيل مظهر

الصحراء سَجْنَتُه الأول ، والنسيان سجنه الثاني ، فيا لها من سجنتين ، الذكريات فيهما نائمة ، والآمال مقموعة ، والخيالات رهن القيود والاغلال . هنالك على حافة الصحراء يقوم ذلك الجبار الذي يمم بجبروته وهيبته على معظم العقل الذي فكر في انشائه ، والهمة القعساء التي أنبتته في عدم الصحراء وهمودها ليضرب الاعاصير برأسه المنكوب ، وكأنه الحق في ثباته وقوته ، أو زمن الابد في لانهائيته . ولكنه الحق الذي لا ناصر له ، شأن الحق في جميع الازمان ، او الأبد الذي يلفظ الاوائل والاواخر ، فاذا انطمروا في غياباته فلا ذكر ولا ذاكر

اللهم نظراً . هذا مثال الجبروت ، وعنوان الملك والملكوت ، تناب عليه الصحراء انسياب النهر الدافق فتمحى من حوله الرسائل ، ويتقبض عليه النسيان انقباض الموت فيمحوه من الفكر ، ويطمسه انطماس الاثر الزائل والطلل الدارس ، وهو بعد جاثم بكل عظمته على صدر الصحراء كأنه امرأة مهجورة . أما نجوم الليل ، فدموعها استحالت ناراً

أي شيء جعل النسيان يأسر ذلك الأسر ؟ لا شيء : إلا موت الفاعل ، وذهاب العامل وأي شيء جعل الزمن ينتصر عليه ذلك النصر الحاسم ، فيتركه للصحراء تستقوي عليه استقواء الخراب على الفقر ، وتتنكر له تنكر العدم للوجود ؟ لا شيء : إلا مشيئة الزمن في أن يموت الراعي ، فينضب الغدير على الحملان

الكون أنيسه ، والرياح المتناوحة صديقه وجليسه . لا أثر هنالك للحياة الا بضع شجيرات في أصيص تغالب جفاف الصحراء طلباً للبقاء وأنات حزينة تبثها بومات هنالك ، أتخذن

من شرفات ذلك المطرَّح المشعر مندباً تندبن منهُ الاحياء، اي هلُمنَّ ندُبًا أبرِ منكم بعضنا تكم وأذكر منكم لمؤسانكم، وقد تركتموها تتراب، ثم للخراب

***

كنا صديقين جمعتا وحدة الميول ووحدة الفكر. أفضنا يوماً بالصحراء فلذنا بصدرها الحنون، لنستودعه بعض آلامنا، وقليلاً من آمالنا، وما زلنا نضرب فيها حتى التقينا بمعهد الصحراء يطل علينا من سماء اربيانة وألف من السنين بعمدانه وشرفاته ونوافذه العربية الاصيلة، فكأنه قطعة من قصر غمدان، او نسخة مصغرة من حمراء الاندلس. ولكن أين الباب؟ ها هو، غير انهُ موصد بألواح رثة من الخشب. وأين النوافذ؟ ها هي، غير انها مغلقة وأين السكان؟ كلاَّ. لا إنسٌ هنالك ولا جان

تسلقت وصديقي ألواحاً من الخشب نسيها هنالك المشيد البنّاء، حتى وصلنا الباب، فأية عظة صامتة تتكلم، وأية أحجار هناك تناجيك بما درس وزال من فكرة أقامت ذلك الأثر حيث أقام عن يمينك تلك الشجيرات، وعن يسارك مقعد من الخشب وحصيرٌ وجوالقٌ خلقٌ يتخذ منها حارس المعهد وثاراً ودثاراً. ولكن أين الحارس؟ لقد لاذ بمدينة الاحياء، ناعياً الصحراء ومعهد الصحراء

أنبتَّ ذلك المعهد كما تنبت زهور البيد؛ اذ هي في رمضاء الصيف، هباء، وفي زمهرير الشتاء رواء؟ أخرج ذلك القصر التامخ خروج الطفيليات؟ أم انهُ سوف يقتلع اقتلاع الطّفيل في بيئة لا تلائمه؟

***

قال صديقي: كلاَّ انسيت ان المغفور لهُ ملكنا فؤاداً الأول، عليهِ من الله الرحمة، هو صاحب الفكرة في اقامة هذا المعهد ليكون للصحراء مدرساً، يقيم فيهِ علماء مؤلفون يدرسون صحاري مصر وما فيها من خيرات بحثاً علميًّا عمليًّا، قد يكون منهُ لهذه البلاد خير عميم ونفع عظيم؟ ألا تجد أن المصريين يجهلون من ارض بلادهم وأربعة أخماسها صحراء، ما يعلم اهل الغرب منها؟ أنسيت ان عاهلنا الراحل العظيم قد خلف ذلك الاثر غير كامل لما ان لبى نداء ربه الى دار النعيم، فظنَّ كما كان يوم ان أسلم عاهلنا الروح، سلَّمهُ ألواح رثة من الخشب، وسكانه يومئذ نتوح، ولاذ حارسه بمدينة الأحياء: فلا ينسى كما نسي ذلك الخبار الصحراوي العظيم؟

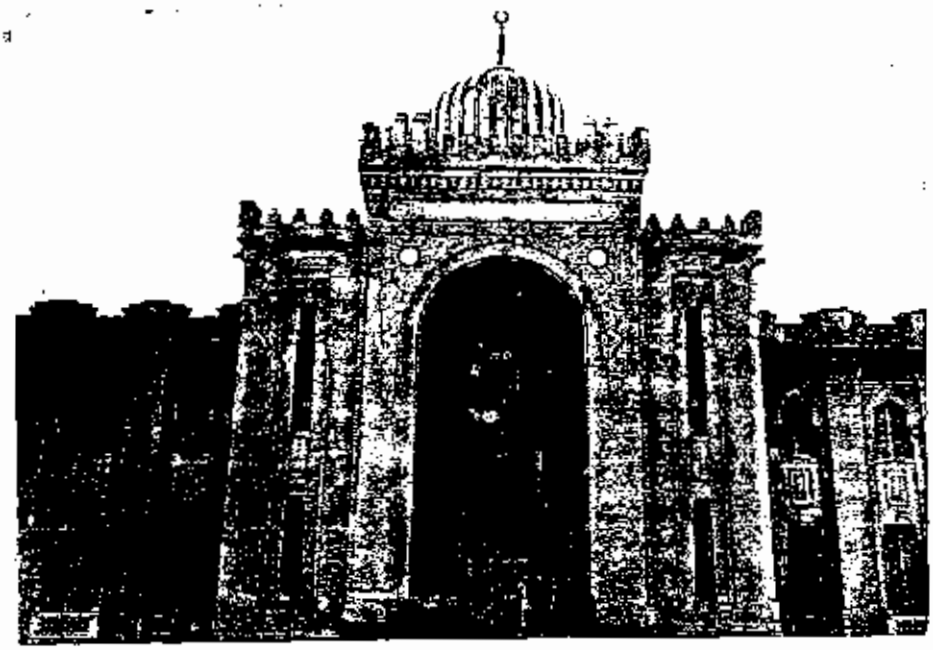

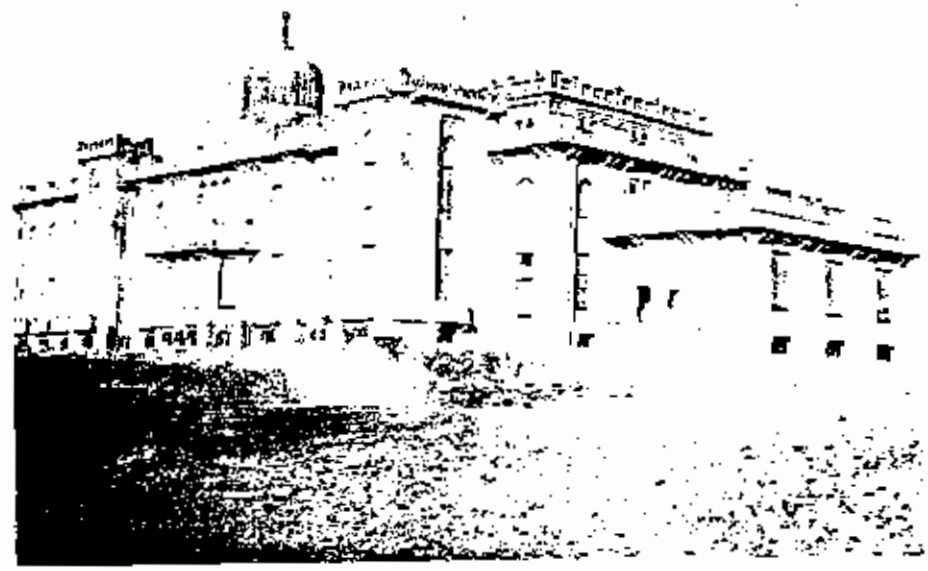

صورتان لمعهد الصحراء بمصر الجديدة

قلت : وهذا هو المعهد : فأين العالم ؟ وهذه هي الصحراء : فأين الباحث ؟ وهذه هي مصر: فأين ذهبها وأين رجالها ينقذون المعهد والفكرة من النسيان، ومن رمال الصحراء، ان تطمس عليها ؟

قلت : كلاّ : إن ملكنا فؤاداً العظيم لم يمت . فقد أخاف علينا من عقله ومن عظمة خليقته الفاروق ، وأضنى علينا من همته ما يضني العظماء على الأمم بما يعتبون

ولئن نسي جميع الناس فلن ينسى جلالة فاروقنا أنّ المغفور له والده العظيم ، قد أقام هذا المعهد بمحض فكره، كما أقام غيره من المعاهد ليحصن مصر بالعلم ويموّذها بالعلماء ، لتضرب في آفاق الحضارة كما ضربت من قبل ذلك خلال القرون ، وما أشكّ في أن جلالة ملكنا المعظم ، إذا عرف اليوم أن معهد الصحراء قد أصبح لسياً منسيّاً في عصر يزدهر بأياديه البيض وايّامه الزّهر ، فان ذلك كفيل بأن يكون فاتحة حياة جديدة يختتم بها ذلك المعهد عهد النسيان يا مولاي

أودّ ان أتقدم على ضعفي الى سدتك العلية بكلمات من حقي ، وانا محصّن برعايتك محوطٌ بعنايتك التي هي من حق كل مصري على جلالتك ، أن لا تكون بتراء مقصوصة الاطراف منتقصة النواحي مأمورة المعالي . هذا المعهد الذي أنشأه عاهلنا العظيم جلالة والدك ، لا ينبغي ان يظلّ في عهدك الزاهر ، لغواً في لغة الحياة التي عشنا في هذه البلاد وترعرعت في بيئتها خطى المغفور له والدك . ولئن كان الناس قد نسوا ، فأخلق بجلالتك ان تذكر

ولئن كانت الصحراء سوف تَعْثُر بمعهدها الذي لا أشك في أن جلالتك ستبث فيه الحياة بعد الموت ، فاني الى جانب ذلك أعود بالذكريات إلى العصر العباسي ، ذلك العصر الزاهر في تاريخ حياة العرب والعربية ، وإلى عصر الخليفة المأمون الذي أسّس « بيت الحكمة » في بغداد ليكون مستقرّاً للعلماء ينقلون فيه حكمة اليونان إلى العربية ، فأسّسوا بذلك مُلْكاً من العلم لم يبناه له في العصر العباسي من حيث الأثر الأعظم المأمون

ومعهد الصحراء يا مولاي عظيم متّسع الارجاء اتّساع العقل الخالد الذي فكّر في انشائه، فهل نطمع في أن يضمّ اليه بضعة علماء يقفون جهودهم على ترجمة علوم اوربا إلى اللغة العربية ؟ وفي مصر يا مولاي علماء أقعدهم النسيان عن العمل ، ومنعهم الخجل عن السؤال ، وعزّ عليهم أن يبيعوا العلم باسترداء العطف . انطمع يا مولاي أن تفيض عليهم من فضلك الواسع ما يُسدّ حاجتهم من حطام الدنيا ، ليكونوا نواةً لبيت الحكمة في عهدك ، يتركها للاجيال القادمة آثاراً لا يبزّها من حيث الأثر في العالم العربيّ الأعظم ، ولا يفوقها في الجلالة الأجلالتك ؟